

٩ - صفورا امرأة موسى ﷺ

﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور، الآية: ٢٦] هذه آية من كلام الحكيم الحميد، ضَمَّهَا قرآنه المجيد، ومن أصدق من الله مَيْلًا؟
بهذه الآية الكريمة أحببت أن أبدأ الحديث عن ربة الطهر والاحتشام، التي ارتضاها الله تعالى حليلةً لكلِّه «موسى» ﷺ.

ولا بد لنا بادئ ذي بدء من التعرف إلى نشأة «موسى» ﷺ، وما الذي حدا به لمغادرة مِقط رأسه بمصر، وكيف ساقته قدماه إلى دار حميه، وكيف زوجته ابنته، وما الصَّدَاق الذي اتفقت عليه الرجلان، في ذلك الزمان.

أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه نسب نبي الله موسى ﷺ فقال: حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة بن الفضل، عن محمد بن إسحاق، قال: ثم إن «لاوي بن يعقوب» نكح «نابتة ابنة ماري بن يشخر» فولدت له «عَرشون بن لاوي» و«مَرْوَى بن لاوي» و«قاهت بن لاوي»، فنكح «قاهت بن لاوي»، «فاهي ابنة مسين بن بتويل بن إلياس»، فولدت له «يصهر بن قاهت»، فتزوج «يصهر»، «شميت ابنة بتاديت بن بركيا بن يقسان بن إبراهيم»، فولدت له «عمران بن يصهر»، و«قارون بن يصهر»، فنكح «عمران»، «يحيب ابنة شمويل بن بركيا بن يقسان بن إبراهيم»، فولدت له «هارون بن عمران» و«موسى بن عمران».

وقال غير ابن إسحاق: كان عمر «يعقوب بن إسحاق» مائة وسبعاً وأربعين سنة، وولد «لاوي» له، وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة، وولد للاوي «قاهت» بعد أن مضى من عمر «لاوي» ست وأربعون سنة، ثم ولد لقاهت «يصهر»، ثم ولد ليصهر «عمرم» - وهو عمران - وكان عمر «يصهر» مائة وسبعاً سنة، وولد له «عمران» بعد أن مضى من عمره ستون سنة، ثم ولد لعمران «موسى»، وكانت أمه «يوخابد» - وقيل: كان اسمها «بَاخْتَةَ» - وامراته «صفورا ابنة تيرون»، وهو «شعيب» النبي ﷺ، وولد «موسى»، «جرشون» و«إيليعازر»، وخرج

إلى «مَدْيَن» خائفاً، وله إحدى وأربعون سنة، وكان يدعو إلى دين «إبراهيم» وتراءى الله بطور سيناء، وله ثمانون سنة^(١).

وأضاف ابن جرير يقول: عن ابن إسحاق، قال: وذكر لي أنه لما تقارب زمان «موسى» أتى منجمو فرعون وحُزَّاتَه - جمع حازٍ - وهو الكاهن - إليه، فقالوا: تَعَلَّمْ أنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، يسلبك ملكك، ويغلبك على سلطانك، ويخرجك من أرضك، ويبدل دينك، فلما قالوا له ذلك، أمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل من العلماء، وأمر بالنساء يُسْتَحْيَيْنَ، فجمع القوابل من نساء أهل مملكته، فقال لهن: لا يسْقُطَنَّ على أيديكنَّ غلام من بني إسرائيل إلا قتلتموه، فكنَّ يفعلن ذلك، وكان يذبح مَنْ فوق ذلك من الغلمان، ويأمر بالحبالي فيعذبن حتى يطرحن ما في بطونهن^(٢).

وتابع ابن جرير قوله، عن محمد بن إسحاق، عن عبد الله بن أبي نجيح، عن مجاهد، قال: لقد دُكِرَ لي أنه كان يأمر بالقصب فيسَّقُّ حتى يجعل أمثال الشفار، ثم يصفُ بعضه إلى بعض، ثم يأتي بالحبالي من بني إسرائيل فيوقفهن عليه، فيحز أقدامهن، حتى إن المرأة منهن لتَمَصُّعُ بولدها - أي: تلقيه -، فيقع بين رجليها، فتظل تطؤه تتقي به حَزَّ القصب عن رجليها، لما بلغ من جهدها، حتى أسرف في ذلك، وكاد يفنيهم، فقيل له: أفنيت الناس، وقطعت النسل، وإنهم حَوْلُوكُ وعمالك، فأمر أن يقتل الغلمان عاماً ويستحيوا عاماً، فولد «هارون» في السنة التي يستحيا فيها الغلمان، وولد «موسى» في السنة التي فيها يقتلون، فكان «هارون» أكبر منه بسنة^(٣).

وأخرج ابن جرير، عن السدي في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس - وعن مرة الهَمْدَانِي، عن ابن مسعود - وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: أنه كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه، أن ناراً أقبلت من بيت المقدس، حتى اشتملت على بيوت مصر، فأحرقت القبط، وتركت بني إسرائيل، وأخربت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والقافة

(١) تاريخ الطبري (١/٣٨٥، ٣٨٦).

(٢) تاريخ الطبري (١/٣٨٧).

(٣) الطبري (١/٣٨٨).

والحازة، فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه - يعنون بيت المقدس - رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر بني إسرائيل ألا يولد لهم غلام إلا ذبحوه، ولا يولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجاً فأدخلوهم، واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة، فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم، وأدخلوا غلمانهم. فذلك حين يقول الله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [القَصَص، الآية: ٤] يقول: تجبر في الأرض ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القَصَص، الآية: ٤] يعني بني إسرائيل حين جعلهم في الأعمال القذرة - ﴿يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَذْبَحُ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [القَصَص، الآية: ٤] ، فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، فلا يكبر الصغير، وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت، فأسرع فيهم، فدخل رؤوس القبط على فرعون فكلموه، فقالوا: إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت، فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح أبنائهم فلا يبلغ الصغار، ويفنى الكبار، فلو أنك تبقي من أولادهم، فأمر أن يذبحوا سنة، ويتركوا سنة، فلما كان في السنة التي لا يذبحون فيها ولد «هارون»، فترك.

فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت «أم موسى» بموسى، فلما أرادت وَضَعَهُ حَزَنَتْ مِنْ أَجْلِهِ، فأوحى الله إليها: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَكَلِّفِيهِ بِنِ الْيَمِّ﴾ [القَصَص، الآية: ٧] وهو النيل ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَسَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القَصَص، الآية: ٧] ، فلما وضعت أرضعته، ثم دعت له نجاراً فجعل له تابوتاً، وجعل مفتاح التابوت من داخل، وجعلته فيه وألقته في اليم ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القَصَص، الآية: ١١] تعني: قُصِّي أثره ﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القَصَص، الآية: ١١] ، إنها أخته، فأقبل الموج بالتابوت يرفعه مرة، ويخفضه أخرى، حتى أدخله بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري «آسية» امرأة فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت، فأدخلنه إلى «آسية»، وظنن أن فيه مالا، فلما نظرت إليه «آسية» وقعت عليه ورحمته وأحبته، فلما أخبرت به فرعون أراد أن يذبحه، فلم تزل «آسية» تكلمه حتى تركه لها.

قال: إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل، وأن يكون هذا الذي على يديه هلاكنا، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَالْقَطْعُ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا

وَحَرَمْنَا ﴿١٧﴾ [الْقَصَص، الآية: ٨] ، فأرادوا له المرضعات، فلم يأخذ من أحد من النساء، وجعل النساء يطلبن ذلك لينزلن عند فرعون في الرضاع، فأبى أن يأخذ، فذلك قول الله: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُمْ نَصِيحَةٌ ﴿١٧﴾﴾ [الْقَصَص، الآية: ١٢] ، فأخذوها، وقالوا: إنك قد عرفت هذا الغلام فدلينا على أهله، فقالت: ما أعرفه، ولكني إنما قلت: هم للملك ناصحون.

ولما جاءت أمه أخذ منها ثديها، فكادت أن تقول: هو ابني، فعصمها الله، فذلك قول الله: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَّنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [الْقَصَص، الآية: ١٠] ، وإنما سمي «موسى» لأنه وجدوه في ماء وشجر، والماء بالقبطية «مو» والشجر «شا» فذلك قول الله ﷻ: ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آبَائِهِ كَي تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴿١٣﴾﴾ [الْقَصَص، الآية: ١٣] فاتخذه فرعون ولدًا فدعي ابن فرعون، فلما تحرك الغلام أرته أمه «آسية» صبيًا، فبينما هي ترقصه وتلعب به إذ ناولته فرعون، وقالت: خذه قرّة عين لي ولك، قال فرعون: هو قرّة عين لك ولا لي.

قال عبد الله بن عباس: لو أنه قال: وهو لي قرّة عين إذا لآمن به؛ ولكنه أبي. فلما أخذه إليه، أخذ «موسى» بلحيته ففتفها، فقال فرعون: عليّ بالذباحين، هذا هو! قالت «آسية»: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذُهُ وَلَدًا﴾ [الْقَصَص، الآية: ٩] ، إنما هو صبي لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، وقد علمت أنه ليس في أهل مصر امرأة أحلى مني؛ أنا أضع له حليبًا من الياقوت، وأضع له جمرًا، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الجمر فإنما هو صبي، فأخرجت له ياقوتها، فوضعت له طستًا من جمر، فجاء «جبرائيل» فطرح في يده جمره، فطرحها «موسى» في فيه، فأحرق لسانه، فهو الذي يقول الله ﷻ: ﴿وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [طه، الآيتان: ٢٧ - ٢٨] ، فزالت عن «موسى» من أجل ذلك.

وكبر «موسى» فكان يركب مراكب فرعون، ويلبس مثل ما يلبس، وكان إنما يدعى «موسى بن فرعون»، ثم إن فرعون ركب مركبًا وليس عنده «موسى»، فلما

جاء «موسى» قيل له: إن فرعون قد ركب، فركب في أثره فأدرکه المقييل بأرض يقال لها «مَنْف»، فدخلها نصف النهار، وقد تغلقت أسواقها، وليس في طرقها أحد، وهو قول الله ﷻ: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَةِ هَذَا﴾ [القَصَص، الآية: ١٥] يقول: هذا من بني إسرائيل ﴿وهَذَا مِنْ عَدُوِّكَ﴾ [القَصَص، الآية: ١٥] يقول: من القبط: ﴿فَاسْتَعْتَبَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَاهِرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ﴿١٨﴾ خَائِفًا أَنْ يُوْخَذَ ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ يقول: يستغيثه، ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القَصَص، الآيات: ١٥ - ١٨]، ثم أقبل «موسى» لينصره، فلما نظر إلى «موسى» قد أقبل نحوه ليطش بالرجل الذي يقاتل الإسرائيلي، قال الإسرائيلي - وفرق من «موسى» أن يبطر به من أجل أنه أغلظ الكلام -: يا موسى! ﴿أَتَرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ ﴿١٩﴾ [القَصَص، الآية: ١٩]، فتركه وذهب القبطي، فأفشى عليه أن «موسى» هو الذي قتل الرجل، فطلبه فرعون، وقال: خذوه فإنه صاحبنا، وقال للذين يطلبونه: اطلبوه في بُنْيَات الطريق، فإن «موسى» غلام لا يهتدي إلى الطريق، وأخذ «موسى» في بُنْيَات الطريق، وجاءه الرجل وأخبره ﴿إِنَّكَ أَلْمَلَاءُ يَأْتِمُرُونَ بِكَ لِیَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوَرِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ [القَصَص، الآيات: ٢٠، ٢١]. فلما أخذ «موسى» في بُنْيَات الطريق، جاءه مَلَكٌ على فرس بيدُه عَنزَةٌ، فلما رآه «موسى» سجد له من الفَرَق - الخوف -، فقال: لا تسجد لي، ولكن اتبعني، فاتبعه، فهداه نحو «مَدِينٍ».

وقال «موسى» وهو متوجه نحو «مَدِينٍ»: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [القَصَص، الآية: ٢٢]، فانطلق به المَلَكُ حتى انتهى به إلى «مَدِينٍ»^(١).

ثم تابع ابن جرير حديث السدي فقال:

(١) الطبري (١/٣٨٨، ٣٩١).

قال: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٣] يقول كثرة من الناس يسقون، وقد حدثنا أبو عمار المروزي، قال: حدثنا الفضل بن موسى، عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، قال: خرج «موسى» من مصر إلى «مَدْيَنَ»، وبينهما مسيرة ثمان ليال - قال: وكان يقال: نحو من الكوفة إلى البصرة - ولم يكن لهم طعام إلا ورق الشجر، فخرج حافياً، فما وصل إليها حتى وقع خف قدمه.

حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا عثَّام، قال: حدثنا الأعمش، عن المنهال، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس بنحوه.

رجع الحديث إلى حديث السدي: ﴿وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٣] يقول: تحبان غنهما، فسألها: ﴿مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا سَقَىٰ حَتَّىٰ يُصَدِّرَ الرِّعَاءَ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٣] فرحمهما «موسى» فأتى البئر، فاقتلع صخرة على البئر، كان النفر من أهل «مَدْيَنَ» يجتمعون عليها حتى يرفعوها، فسقى لهما «موسى» دلوأ فأروتا غنهما، فرجعتا سريعاً، وكانتا إنما تسقيان من فضول الحياض، ثم تولى «موسى» إلى ظل شجرة من السَّمُر، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٤]، قال: قال ابن عباس: لقد قال «موسى» ولو شاء إنسان أن ينظر إلى خضرة أمعائه من شدة الجوع ما يسأل الله إلا أكلة.

فلما رجعت الجاريتان إلى أبيهما سريعاً، سألهما فأخبرته خبر «موسى» فأرسل إحداهما فاتته ﴿تَمَثَّىٰ عَلَىٰ اسْتِحْيَاءٍ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٥] وهي تسحي منه، ﴿قَالَتْ إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٥] فقام معها، وقال لها: امضي، فمشيت بين يديه، فضربتها الرياح فنظر إلى عجيزتها، فقال لها «موسى»: امشي خلفي، ودليني على الطريق إن أخطأت، فلما أتى الشيخ ﴿وَقَفَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الْقَصَص، الآية: ٢٥]، وقال «الآلوسي» في تفسيره لهذه الآية: ﴿إِنَّكَ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ أي: جزاء سقيك على أن «ما» مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن ما يستحق عليه الأجر فعله لا ما سقاه إذ هو الماء

المباح، وأسندت الدعوة إلى أبيها، وعَلَّتْهَا بالجزء لثلاثا يومهم كلامها ربية، وفيه من الدلالة على كمال العقل والحياء والعفة ما لا يخفى، روي أنه ﷺ أجابها فقام معها، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق فإني أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك، ففعلت.

وفي رواية: أنه قال لها: كوني ورائي فإني رجل لا أنظر إلى أدبار النساء، ودليني على الطريق يمينا أو يساراً، وروي عن ابن عباس، وقاتدة، وابن زيد، وغيرهم أنها مشت أولاً أمامه، فألزقت الريح ثوبها بجسدها فوصفته، فقال لها: امشي خلفي وانعتي لي الطريق، ففعلت حتى أتيا دار «شعيب» ﷺ.

وتابع «الألوسي» رحمه الله قوله: واختلف في الداعي له ﷺ إلى الإجابة فقليل: الذي يلوح من ظاهر النظم الكريم أن «موسى» ﷺ إنما أجاب المستدعية من غير تلثم ليتبرك بروية الشيخ، ويستظهر برأيه، لا طمعاً بما صرحت به من الأجر، ألا ترى إلى ما أخرج ابن عساكر، عن أبي حازم، قال: لما دخل «موسى» على «شعيب» ﷺ إذا هو بالعشاء، فقال له «شعيب»: كل، قال «موسى»: أعوذ بالله تعالى، قال: ولم؟ أأست بجائع؟ قال: بلى، ولكن أخاف أن يكون هذا عوضاً لما سقيت لهما، وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئاً من عمل الآخرة بملء الأرض ذهباً، قال: لا والله! ولكنها عادتي وعادة آبائي، نقري الضيف، ونطعم الطعام، فجلس «موسى» ﷺ فأكل.

وقيل: الداعي له ما به من الحاجة، وليس بمستكر منه - ﷺ - أن يقبل الأجر لإضرار الفقر والفاقة^(١).

وتابع ابن جرير حديث السدي، فقال: ﴿قَالَتْ لِأَحَدَهُمَا يَا بَنِي اسْتَجِرْهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مِّنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْآيِينَ ﴿٦١﴾﴾ [القصص، الآية: ٢٦]، وهي الجارية التي دعت، قال الشيخ: هذه القوة قد رأيت حين اقتلع الصخرة، رأيت أمانته ما يدريك ما هي؟ قالت: إني مشيت قدامه فلم يحب أن يخونني في نفسي، وأمرني أن أمشي خلفه، قال له الشيخ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَيَّ أَنْ تَأْجُرَنِي

(١) روح المعاني (٢٠/٦٥).

فَمَنْعِي جِجِجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْسُقَ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي
 إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَنِي وَيْنُكَ أَيَّمَا الْأَجْلِينَ قَضَيْتُ فَلَا
 عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ [الفصص، الآيتان: ٢٧، ٢٨] ، إما ثمانياً
 وإما عشرًا^(١) .

وروى الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ،
 قال: «سألت جبريل: أي الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما وأكملهما» .

وتابع ابن جرير حديث السدي، فقال: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾
 [الفصص، الآية: ٢٩] فضلل الطريق، قال عبد الله بن عباس: كان في الشتاء، ورفعت
 له نار، فلما ظن أنها نار - وكانت من نور الله - ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا
 لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ فإن لم أجد خبراً أتيتكم منها بشهاب قيس ﴿لَعَلَّكُمْ
 تَصْطَلُونَ﴾ [الفصص، الآية: ٢٩] - قال: من البرد - ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ
 الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [الفصص، الآية: ٣٠] . ﴿أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي
 النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشم، الآية: ٨] فلما سمع «موسى» النداء فزع وقال: الحمد لله
 رب العالمين، فنودي: ﴿يَمُوسَىٰ إِنَّكَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفصص، الآية: ٣٠]
 ﴿وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوسَىٰ﴾ ﴿٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنِيٍّ
 [طه، الآيتان: ١٧، ١٨]، يقول: أضرب بها الورق، فيقع للغنم من الشجر، ﴿وَلِيَّ
 فِيهَا مَخَارِبٌ أُخْرَىٰ﴾ [طه، الآية: ١٨] يقول: حوائج أخرى، أحمل عليها الجزود
 والسقاء، فقال له: ﴿أَلْقِهَا يَمُوسَىٰ﴾ ﴿١١﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿١٢﴾ [طه،
 الآيتان: ١٩ - ٢٠] ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدِرًّا وَلَهُ يَعْقَبُ﴾ [الفصص، الآية: ٣١] ،
 يقول: لم ينتظر، فنودي: ﴿يَمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُرْسَلُونَ﴾ [الشم،
 الآية: ١٠] ، ﴿أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِ﴾ ﴿١٣﴾ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ
 الرَّهْبِ فَذَانِكَ بَرَهَتَانِ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الفصص، الآيتان: ٣١، ٣٢] ، العصا واليد
 آيتان، فذلك حين يدعو «موسى» ربه، فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي قُلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ
 يَقْتُلُونِ﴾ ﴿١٤﴾ وَأَخِي هَارُوتُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مِنِّي رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ
 أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ ﴿١٥﴾ [الفصص، الآيتان: ٣٣، ٣٤] ، قال: ﴿وَلَمَّ عَلَىٰ ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ

(١) الطبري (١/٣٩٨).

يَقْتُلُونَ ﴿١٤﴾ [الشُّعْرَاءُ، الآيَة: ١٤] - يعني بالقتيل - ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ [الْقَصَصُ، الآيَة: ٣٥] - والسلطان الحجة - ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِتَابِعَاتِنَا أُنْتَمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ﴾ [الْقَصَصُ، الآيَة: ٣٥] ، ﴿فَأَيُّهَا فِرْعَوْنُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشُّعْرَاءُ، الآيَة: ١٦] .

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة: ﴿فَلَمَّا فَضَّيَ مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص، الآيَة: ٢٩] ، - خرج فيما ذكر لي ابن إسحاق، عن وهب بن منبه اليماني - فيما ذكر له - عنه، ومعه غنم له، ومعه زنده له وعصاه في يده يهش بها على غنمه نهاره، فإذا أمسى اقتدح بزنده ناراً، فبات عليها هو وأهله وغنمه، فإذا أصبح غدا بأهله وبغنمه يتوكأ على عصاه، وكانت - كما وُصِفَ لي عن وهب بن منبه - ذات شعبتين في رأسها، ومحجن في طرفها .

حدثنا ابن حميد، قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن من لا يتهم من أصحابه، أن كعب الأحمق قدم مكة، وبها «عبد الله بن عمرو بن العاص» فقال «كعب»: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم فإنه عالم، سلوه عن شيء من الجنة، وضعه الله للناس في الأرض، وسلوه ما أول ما وضع في الأرض؟ وما أول شجرة غرست في الأرض؟ فسئل «عبد الله» عنها فقال: أما الشيء الذي وضعه الله للناس في الأرض من الجنة فهو هذا الركن الأسود، وأما أول ما وضع في الأرض فبرهوت باليمن يرده هام الكفار، وأما أول شجرة غرسها الله في الأرض، فالعوسجة التي اقتطع منها «موسى» عصاه، فلما بلغ ذلك «كعباً» قال: صدق الرجل، عالم والله! .

قال: فلما كانت الليلة التي أراد الله بموسى كرامته، وابتدأه فيها بنبوته وكلامه، أخطأ فيها الطريق حتى لا يدري أين يتوجه، فأخرج زنده ليقدح ناراً لأهله ليسيئوا عليها حتى يصبح، ويعلم وجه سبيله، فأصلد عليه زنده فلا يوري له ناراً، فقدح حتى إذا أعياه لاحت النار فرآها ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ أَمْكُوثًا إِنِّي ءَأَسْتُ نَارًا لَعَلِّي ءَأِيكُم مِّنْهَا يَفْقِسُ أَوْ أَحِدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ [طه، الآيَة: ١٠] . بقبس تصطلون، وهدي: عن علم الطريق الذي أضلنا بنعت من خير، فخرج نحوها، فإذا هي في شجرة من العُلُقِ . وبعض أهل الكتاب يقول: في عَوْسَجَة، فلما دنا استأخرت عنه، فلما رأى استخارها رجع عنها، وأوجس في نفسه منها خيفة، فلما أراد

الرجعة دنت منه، ثم كَلَّمَ من الشجرة، فلما سمع الصوت استانس، وقال الله: يا موسى ﴿فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه، الآية: ١٢]، فألقاهما، ثم قال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنِيٍّ وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ [طه: الآيتان ١٧، ١٨] أي: منافع أخرى ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ [طه: الآيتان ١٩، ٢٠]، قد صار شعبتها فمها، وصار محجتها عُزْفاً لها، في ظهر تهتز، لها أنياب، فهي كما شاء الله أن تكون، فرأى امرأاً فظيعاً فولّى مدبراً ولم يُعَقِّبْ، فناداه ربه: أن يا موسى! أقبل ولا تخف ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ [طه، الآية: ٢١]. أي: سيرتها عصاً كما كانت. قال: فلما أقبل قال: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه، الآية: ٢١]، أدخل يدك في فمها، وعلى «موسى» جبة صوف، فَلَفَّ يده بكمه، وهو لها هائب، فنودي أن ألقى كحك عن يدك، فألقاها عنها، ثم أدخل يده بين لحييها، فلما أدخلها قبض عليها، فإذا هي عصاه في يده، ويده بين شعبيها حيث كان يضعها، ومحجتها بموضعه الذي كان لا ينكر منها شيئاً، ثم قيل: ﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [النمل، الآية: ١٢] أي: من غير برص - وكان «موسى» رجلاً آدم، أقنى، جعداً، طَوَّالاً - فأدخل يده في جيبه، ثم أخرجها بيضاء مثل الثلج، ثم رَدَّهَا في جيبه، فخرجت كما كانت على لونه، ثم قال: ﴿فَذَلِكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ لِإِنِّي نَفْسًا فَآخِفْ أَنْ يَفْتُلُونِ ﴿٢٤﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ﴿٢٥﴾ [القصاص، الآيات ٣٢ - ٣٤] أي: يبين لهم عني ما أكلمهم به، فإنه يفهم عني ما لا يفهمون، ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَجَعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمْ وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ﴾ ﴿٢٥﴾ [القصاص، الآية: ٣٥].

وتابع ابن جرير حديث السدي: فأقبل «موسى» إلى أهله فسار بهم نحو مصر حتى أتاها ليلاً، فتضيّف على أمه، وهو لا يعرفهم، فأتاهم في ليلة كانوا يأكلون فيها «الطَفَيْشَل» - نوع من المَرَق -، فنزل في جانب الدار.

فجاء «هارون»، فلما أبصر ضيفه سأل عنه أمه، فأخبرته أنه ضيف، فدعاه فأكل معه، فلما أن قعدا تحدثا، فسأله «هارون»: من أنت؟ قال: أنا «موسى»، فقام كل واحد منهما إلى صاحبه فاعتقه، فلما أن تعارفا قال له «موسى»: يا

«هارون!» انطلق معي إلى فرعون، إن الله قد أرسلنا إليه، فقال «هارون»: سمعاً وطاعة، فقامت أمهما فصاحت، وقالت: أنشدكما الله ألا تذهبا إلى فرعون فيقتلكما، فأبيا، فانطلقا إليه ليلاً، فأتيا الباب فضرباه، ففزع فرعون، وفزع البواب، وقال فرعون: مَنْ هذا الذي يضرب بابي في هذه الساعة؟ فأشرف عليهما البواب، فكلمهما، فقال له «موسى»: ﴿إِنِّي رَسُولٌ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الزخرف، الآية: ٤٦] ، ففزع البواب، فأتى فرعون فأخبره، فقال: إن ههنا إنساناً مجنوناً يزعم أنه رسول رب العالمين، قال: أدخله، فدخل، فقال: إني رسول رب العالمين، أن أرسل معي بني إسرائيل، فعرفه فرعون، فقال: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [١٨، ١٩] معنا على ديننا هذا الذي تعيب! ﴿قَالَ فَكَلِمَةً إِذَا فِئْتَانٍ مِنْ نَجْدٍ اتَّيَبْتُمْ لِكُلِّ شَيْءٍ وَرَبَّيْتُمْ فَبِعَلِّمْهُمْ سَبْعَ مَسَاجِدَ وَبَنَيْتُمْ كَعْبَدَتِي وَأَنشَأْتُمْ كَلْبًا مَذْمُومًا﴾ [الشعراء، الآية: ٢٠، ٢١] - والحكم والنبوة - ﴿وَجَعَلْنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [٢١] وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَنْهَىٰ عَنِّي أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء، الآية: ٢١، ٢٢] وربيتني قبل وليداً! ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء، الآية: ٢٣] ، ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَلْمُوكُنِي﴾ [٢٤] قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: الآية: ٤٩، ٥٠] ، يقول: أعطى كل دابة زوجها، ثم هدى للنكاح، ثم قال له: ﴿إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٠٦] ، وذلك بعدما قال له من الكلام ما ذكر الله تعالى، قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾ [٣٠] قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [٣١] فَأَلْفَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾ [الشعراء: الآيات ٣٠، ٣١] . - والثعبان الذكر من الحيات - فاتحة فاهها، واضعة لحيها الأسفل في الأرض والأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فلما رآها دُعِرَ منها ووثب، فأحدث - ولم يكن يحدث قبل ذلك - وصاح: يا «موسى»! خذها وأنا أو من بك، وأرسل معك بني إسرائيل، فأخذها «موسى» فعادت عصاً، ثم نزع يده وأخرجها من جيبه، فإذا هي بيضاء للناظرين، فخرج «موسى» من عنده على ذلك، وأبى فرعون أن يؤمن به، أو يرسل معه بني إسرائيل، وقال لقومه: ﴿يَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرٍ فَأَوْفِدْ لِي بِهَمْدُنْ عَلَى الطَّلِينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَيْهِ إِلَهُ مُوسَى﴾ [الفصص، الآية: ٣٨] .

فلما بنى له الصرح ارتقى فوقه، فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء، فرُدَّت إليه، وهي ملطخة دماً، فقال: قد قتلت إله «موسى»^(١).

ويل له من كذاب مبين! ثم ويل له حين يقف ذليلاً صاعراً بين يدي رب العالمين! ثم تابع ابن جرير حديث السدي فقال: ذُكِرَ أن الآيات التي ابتلى الله بها قوم فرعون كانت قبل اجتماع «موسى» والحرّة، وقال لما رجع إليهم السهم ملطخاً بالدم، قال: قد قتلنا إله «موسى»، ثم إن الله أرسل عليهم الطوفان - وهو المطر - فغرق كل شيء لهم، فقالوا: يا «موسى»! ادع لنا ربك يكشف عنا، ونحن نؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل، فكشفه الله عنهم، ونبتت زروعهم، فقالوا: ما يَسْرُنَا أنا لم نمطر، فبعث الله عليهم الجراد فأكل حروثهم، فسألوا «موسى» أن يدعو ربه فيكشفه ويؤمنوا به، فدعا فكشفه، وقد بقي من زروعهم بقية، فقالوا: لن نؤمن وقد بقي لنا من زروعنا بقية، فبعث الله عليهم الدّبا - وهو القُمَّل - فَلَحَسَ الأرض كلها، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه، وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلىء دَباً، حتى إن أحدهم ليبنى الأسطوانة بالحص والآجر، فيزلقها حتى لا يرتقي فوقها شيء من الذباب، ثم يرفع فوقها الطعام، فإذا صَعِدَ إليه ليأكله وجده ملان دَباً، فلم يصبهم بلاء كان أشد عليهم من الدّبا، وهو الرّجز الذي ذكره الله في القرآن أنه وقع عليهم، فسألوا «موسى» أن يدعو ربه فيكشفه عنهم ويؤمنوا به، فلما كشف عنهم أبوا أن يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الدم، فكان الإسرائيلي يأتي هو والقبطي فيستقيان من ماء واحد، فيخرج ماء هذا القبطي دماً، ويخرج للإسرائيلي ماء، فلما اشتد ذلك عليهم سألوا «موسى» أن يكشفه ويؤمنوا به، فكَشِفَ ذلك عنهم، فأبوا أن يؤمنوا، فذلِكَ حين يقول الله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُورُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزّخرف، الآية: ٥٥]، ما أعطوا من العهود، وهو حين يقول: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالْسِّنِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأعراف، الآية: ١٣٠] - وهو الجوع - ﴿وَنَقِصَ مِن الشَّمْرِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ [الأعراف، الآية: ١٣٠].

ثم إن الله ﷻ أوحى إلى «موسى» و«هارون» أن: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئِنَّا لَللَّهُمَّ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه، الآية: ٤٤]، فأتياه فقال له «موسى»: هل لك يا

فرعون! في أن أعطيك شبابك ولا تهرم، وملكك لا ينزع منك، ويرد إليك لذة المناكح والمشارب والركوب، فإذا مت دخلت الجنة؟ تؤمن بي، فوقعت في نفسه هذه الكلمات، وهي اللبنة، فقال: كما أنت حتى يأتي «هامان»، فلما جاء «هامان»، قال له: أشعرت أن ذلك الرجل أتاني؟ قال: من هو؟ - وكان قبل ذلك، إنما يسميه الساحر، فلما كان ذلك اليوم لم يسمه الساحر - قال فرعون: «موسى»، قال: وما قال لك؟ قال: قال لي: كذا وكذا، قال «هامان»: وما رددت عليه؟ قال: قلت: حتى يأتي «هامان» فاستشيره، فعجزه «هامان»، وقال: قد كان ظني بك خيراً من هذا، تصير عبداً يُعبُد بعد أن كنت رباً يُعبُد! فلذلك حين خرج عليهم فقال لقومه وجمعهم فقال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [التَّارِغَات، الآية: ٢٤]، وكان بين كلمته ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [الفَصَص، الآية: ٣٨]، وبين قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [التَّارِغَات، الآية: ٢٤] أربعون سنة، وقال لقومه: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ﴾ ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ ﴿قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَتِمْ فِي الدَّائِنِ حَشِيرِينَ﴾ ﴿يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ﴾ [الشَّعْرَاء، الآيات: ٣٤ - ٣٧]، قال فرعون: ﴿أَجِئْنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلِنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾ ﴿طه، الآيات: ٥٧، ٥٨﴾ يقول: عدلاً، قال «موسى»: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ صُحًى﴾ [طه، الآية: ٥٩] - وذلك يوم عيد لهم - ﴿فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى﴾ [طه، الآية: ٦٠]، وأرسل فرعون في المدائن حاشيرين، فحشروا عليه السحرة، وحشروا الناس ينظرون، يقول: ﴿هَلْ أَنْتُمْ مُتَّعِمُونَ﴾ ﴿لَمَلْنَا نَبْعَ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ أَفْغَلِينَ﴾ [الشَّعْرَاء، الآيات: ٣٩، ٤٠] إلى قوله: ﴿أَيْنَ لَنَا لَاجِرٌ إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْفَالِغِينَ﴾ [الشَّعْرَاء، الآية: ٤١] يقول: عطية تعطينا ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرَبِينَ﴾ [الشَّعْرَاء، الآية: ٤٢] فقال لهم «موسى»: ﴿وَيَلِكُمْ لَا تَقْرَؤُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ﴾ [طه، الآية: ٦١]، يقول: يهلككم بعذاب، ﴿فَنَنْزِعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى﴾ [طه، الآية: ٦٢] من دون «موسى» و«هارون»، وقالوا في نجواهم: ﴿إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُومًا﴾ [طه، الآية: ٦٣]، يقول: بأشراف قومكم، فالتقى «موسى» وأمير السحرة، فقال له «موسى»: رأيتك إن غلبتك، أتؤمن بي

وتشهد أن ما جئت به حق؟ قال: نعم، قال الساحر: لآتين غداً بسحر لا يغلبه سحر، فوالله لئن غلبتني لأومننَّ بك، ولأشهدن أنك على حق - وفرعون ينظر إليهما - وهو قول فرعون: ﴿إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ﴾ [الأعراف، الآية: ١٢٣] ، إذ التقيتما لتتظاهرا ﴿لِنُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا﴾ [الأعراف، الآية: ١٢٣] ، فقالوا: ﴿يَلْمُوسَىٰ إِمَامًا أَن تُلْقَىٰ وَإِمَامًا أَن تَكُونَ نَحْنُ﴾ [الأعراف، الآية: ١١٥] ، قال لهم «موسى»: ألقوا فآلقوا حبالهم وعصيمهم - وكانوا بضعة وثلاثين ألف رجل، ليس منهم رجل إلا ومعه جبل وعصا - ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف، الآية: ١١٦] ، يقول: فرّقوهم، ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ﴾ ﴿طه، الآية: ٦٧﴾ ، فأوحى الله إليه، ألا تخف، ﴿وَأَلْقَىٰ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفَ مَا صَنَعُوا﴾ [طه، الآية: ٦٩] فالقى «موسى» عصاه، فأكلت كل حية لهم، فلما رأوا ذلك سجدوا، وقالوا: ﴿ءَأَمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١٦١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٦٢﴾ [الأعراف، الآيتان: ١٢١، ١٢٢] ، قال فرعون: ﴿فَلَا تَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِن خَلْفٍ لِأَصْلَبْتُمْ فِي جُدُوعِ النَّحْلِ﴾ [طه، الآية: ٧١] فقتلهم وقطعهم - كما قال عبد الله بن عباس - حين قالوا: ﴿رَبَّنَا أفرغ علينا صبراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف، الآية: ١٢٦] ، قال: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء^(١).

ثم أوحى الله تعالى إلى نبيه «موسى» ﷺ أن يخرج ببني إسرائيل، فخرج بهم وأتبعهم فرعون وجنوده، فقال أصحاب «موسى»: إنا لمدركون، يا «موسى!» أودينا من قبل أن تأتينا، كانوا يذبحون أبناءنا، ويستحيون نساءنا، ومن بعد ما جئتنا، اليوم يدركننا فرعون فيقتلنا، وكان البحر أمامهم، وفرعون خلفهم، فقال لهم: إن معي ربي، فتقدم «هارون» فضرب البحر فلم يصنع شيئاً، ثم تقدم «موسى» وكناه «أبا خالد»، ثم ضربه ﴿فَأَنفَلَقَ فَمَا كَانَ كَلٌّ لِّرِيقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء، الآية: ٦٣] . ورأى بنو إسرائيل أمامهم اثني عشر فرقة فدخلوها، ثم دخل في إثرهم فرعون وأصحابه، حتى إذا خرج «موسى» ومن معه من الطرف الآخر، أمر الله تعالى البحر بأخذ فرعون وشيعته، فكانوا من المغرقين.

وحتى لا يختلف الناس في مصير فرعون، ويقول ناس إنه لم يموت، وإنما

خرج من الطرف الآخر، ويقول آخرون: بل كان بين الغرقى، فقد أمر الله البحر أن يلفظه إلى الشاطئ ليرى أتباعه وأعداؤه تلك النهاية المخزية لذلك الإله المزعوم الذي أكره الناس على عبادته حيث قال لهم: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ (١٤) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْأَخْرَجِ وَالْأُولَى (١٥) [النَّازِعَات، الآيات: ٢٤، ٢٥] أخذ عزيز مقتدر، والحمد لله رب العالمين.

ونقل أبو جعفر الطبري، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن كعب القرظي، عن عبد الله بن شداد بن الهاد الليثي، قال: حدثت أنه لما دخلت بنو إسرائيل، فلم يبق منهم أحد أقبل فرعون وهو على حصان له من الخيل، حتى وقف على شفير البحر، وهو قائم على حاله، فهاب الحصان أن يتقدم، فعرض له «جبرائيل» على فرس أنثى وديق - الفرس الوديق: التي تريد الفحل -، فقربها منه، فشمها الفحل، ولما شمها قَدَّمَهَا، فتقدم معه الحصان عليه فرعون، فلما رأى جند فرعون أن فرعون قد دخل دخلوا معه، وجبرائيل أمامه، فهم يتبعون فرعون، و«ميكائيل» على فرس خلف القوم يشحذهم يقول: الحقوا بصاحبكم، حتى إذا فصل «جبرائيل» من البحر ليس أمامه أحد طَبَّقَ عليهم البحر، ونادى فرعون حين رأى من سلطان الله وقدرته ما رأى، وعرف ذلّه وخذلته نفسه، نادى: أن لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: جاء «جبرائيل» إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد! لقد رأيتني وأنا أَدَسُ من حَمَاٍ البحر في فم فرعون مخافة أن تدركه الرحمة! يقول الله: ﴿ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١٦) فَأَلْيَوْمَ نُنَجِّكَ بِبَدَنِكَ ﴿يُونُس، الآيات: ٩١، ٩٢﴾ أي: سواء لم يذهب منك شيء ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾ ﴿يُونُس، الآية: ٩٢﴾ أي: عبرة وبيّنة، فكان يقال: لو لم يخرج الله ببدنه لشك فيه بعض الناس^(١).

وهكذا طوى الله صفحة «فرعون» أحد العتاة المستكبرين، الذي أراد أن ينازع فاطر السماوات والأرضين، في ملكوته فقصمه الله فكان عبرة للمعتبرين.

وقد جاء في الحديث القدسي الذي رواه محمد بن زياد، قال: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﻋﻠﻴﻚ: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحداً منهما؛ قذفته في النار»^(١).

ولكن، وبعد القضاء على فرعون وبطانته، هل انتهت متاعب «موسى» عليه السلام مع بني إسرائيل؟ كلا، لم تنته، فقد لقي منهم العنت والمرارة والأسى، وكانت يد الزوج الحنون «صفورا» تمسح عن جبينه كل ذلك حين يرجع إليها متعباً مكدوداً، وتهدئ له كل أسباب الراحة والهناء.

والحق أن خير الأزواج لبعولتهن، المرأة الصالحة الملتزمة بأمر الله تعالى، المطبقة لسنة رسول الله ﷺ، المعينة لزوجها على أمور دينه.

وكانت «صفورا» عليها السلام، لا تألو جهداً في إسعاد «كليم الله» عليه السلام تطيعة إذا أمرها، وتتهي عن كل ما ينهاها، وتجعل رضاه مقداً على رضاها، ولما كان الصداق الذي اتفق عليه «موسى» عليه السلام مع أبيها «شعيب» عليه السلام أن يعمل لديه ويرعى له غنمه ثمانين حجاج أو عشراً فقد وفى له «موسى» عليه السلام بالأجل الأتم وهو عشر سنوات، ثم انطلق مع زوجه الحامل «صفورا» لما أراه الله، ويدعو فرعون إلى الله بعد أن ودّع حمّاه «شعيباً» عليه السلام وكان زواجه قد أثمر ولدین، خلال الأجل المشروط، وبعد وصول أسرة «الكليم» إلى أرض الكنانة، قُلت وانقطعت أخبار «صفورا» وأولادها، وإن كان المكان الذي تنزل فيه يفيض بالشذا والعبير عليها السلام، وأدخلها في رحمته، وعلى بعلها «موسى» صلاة الله وسلامه.

(١) رواه أبو داود في اللباس، باب ما جاء في الكبر.